في حضرة من أخشى

ممدوح عـــــدوان

ترافقنا على لعبِ
فخبّأنا الطفولة تحت أحجارِ
ورحنا كي نصيد صبا
وكنا نمتطي حلماً يخبّ بنا
كريح صَبا
فُتنّا باحتمالات المعاني
فافترعنا أوْجهاً للحلم
عبّأنا الدُنى شَغَبا
وعدنا لا الصبا معنا
ولا تلك الطفولة أشبعت لَعبا
رفعنا عن طفولتنا مساترها
فلم نعثر عليها
بل وجدنا أعيناً كالفطر
تقطرُ نحونا عَتَبا
ولم تُبق الليالي غير ضوء فاتر الرَّجفاتِ
غافلنا لينتبذ الحنايا
وحده في السرّ مُنْتَحبا
رددت ورائيَ الظلّ المعاند
مثلما في الريح أُرجع غُرّتي
وإذا بموتي واقفاً طَربا
غزالاً كنت قد طاردته في غابة الأحلام
فاجأني وقد ألقيت قوسي والسهامَ
ونمت في ظل الأسى تَعبا
وعندئذٍ تلفّتي عن وجهه
ألقى إليّ بطُعمه قبل الرَّواحِ
وكان الطُعم ذا طَعْمٍ فعشتُ
وكان الشِّعر يُنْعش فانتعشتُ
وورّطني بطعم الماء عَذْباً
صاغ أوجاعي قَراحاً
صرت أركض نحو رأس النَّبْعِ

لكني أرى الديدان تنغل في المُراحِ
أصدّ عن المياه مكابراً،
يأبى وينهض في دمي ظمئي
يغطّ على حياتي كاسراً
ويشيل قلبي في مخالبه
يلوّح بي على جرف المنى
فأعيش من يومٍ تولاّني
إلى يوم مُتاح
أفكك مخلب الطير المعشق
في انعتاقي:
أيها الطير المراوغ خذ ثيابي
أو أعرني بعض رفّات الجناح
ودع قلبي.. الذي أمعنت في تمزيقه
دعني أضمد أيّ جرح فيَّ
قبل تفتّق الألم الصُّراحِ
أتوق إلى انفلاتي
من حصار الروح في جسدي المُباحِ
تعالي يا سكينةَ غفوتي
أو غربّي يا نجمةَ العمر الثقيل
لكي أرى موتي المؤمّل في صباحي
تعبتُ من اتكائي في المسير
على عصا شعرٍ أهُشُّ بها على أحلامنا
وتنوب عني في صياحي.
تعتب من القتال
ومن منازلة الخصوم
وكلّهم كمنوا بأعضائي
فصار دمي هو المضمار
والميدان من أرقي
وأوجاعي سلاحي
أنا شجر غريب الدار والتربهْ

ثماري أينعت فتساقطت حولي
كما تلهو بها الأيام والرغبه
وليس هناك من يتذوّق الثمرات
من يسعى ليسحب من دمي الغربه
وقد وصلت جذوري للصخور
فحوصرت بجفافها
وانسلّ موتي صاعداً
كالنمل في الأغصان والأوراق
فاجأني بأني لم أخف من وقفتي قُرَبهْ
وحين عرفت نكهته خلعت له اخضراري
وارتديت له تلاوين الخريف
تطلّعوا.. كم صرت عند الموت أحلى
كيف تنطلق الأغاريد البهيّةُ من نواحي
وهأنذا أشفّ على تباريحي
فأخرج من لحائي، ثم أصفو بالأنين
وأرتدي وجعي
أميس مع الندى
شجراً ترنّحه خمور عُتّقت بالنسغ
من أسرارها شربا
كأن عظاميَ امتلأت بآلامي
استحالت كي تناغم آهتي
قصبا
أَنِلْ قدميَّ ظهرَ الموت، يكفيني
دنا وقت الترجّل عن جراحي
أَنِلْ عينيَّ إغفاءً بحضن الموت
قد أضنانيَ السهرُ
وأضناني التعرّي والتشرد
هات.. ألْجِئْني.. ودثّرني
بما سيريح أبنائي إذا نظروا
نكابر مرة أخرى
لعل مواجعي تكسو عظامي
أو لعلّ العظم من وَجَعٍ سينجبرُ
كفانا عُرْينا في العيش
قد آن الأوان لسترة
خذني وستّرني من البرد اللئيم
ببردة الموت الرؤوم

لعلّها تهدا رياحي
لعلي أستريح من الكوابيس
التي ملأت حياتي
من سيوقظني من العيشِ؟
ومن سيردّ لي طيشي؟
أنل شفتيَّ طعماً غير هذا الطعم
في وَجَعي المتاحِ
أتى وقت العناق
وسوف يأتيني حبيبي
حين أعطيه الإشارة والعلامه
حين أرخي من يدي عمري
وألقي في مهبّ الريح
عن عمد وشاحي
سيأتيني ويعرف أن وصلاً يانعاً
يأتي به موتي
يكون به ارتياحي
عبرنا من مخاوفنا إلى الخيبات
هيّأنا لرحلتنا حوائجها
وصار عليّ أن أبدأ
مخافة أن يطول بيَ المُقامُ
وأنني أصدأ.
رأيت الطُّعم والحبل الذي
ألقاه لي دائي
وكان الطُّعم يأتيني على استحياءْ
ولكني أشد الحبل باستجداءْ
أشدّ الحبل لاألوي على طُعم
لأني وحْديَ الرائي.
ووحدي ساطع عَبَقٌ
أغوص مكابراً في بحر هذا العمر
والبحر الذي قد غاض منه الماء
مسكون بأعدائي
أصيح وكلّيَ استعلاءْ:
لقد أمسكت بالسنارة
اسحبني من الماءِ
وطوِّحْ بي على الرمضاءْ.